حول الشهادتين
معناهما
وما تستلزمه كل منهما

للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين

الحمد لله المتفرد بالكمال المتوحد بصفات الجلال، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له تعالى عن الأنداد والأمثال وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي فضله ربه لما تميز به من شريف الخصال، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أهل الاتباع والامتثال.

أما بعد فحيث أن التلفظ بالشهادتين والعمل بمقتضاهما هو الركن الأساسي للدين الإسلامي، وحيث أن جماهير أمة الدعوة يجهلون ما يراد بهما ويعتقدون أن المراد مجرد النطق بهما دون معرفة وعمل، وأن هناك من يفسرهما بما يخالف معناهما، لذا فقد أحببت أن أكتب بحثا حول ذلك رجاء أن يستفيد منه من له قصد حسن ممن أراد الله به خيرا وذلك يتضمن مباحث.

المبحث الأول

في فضل هاتين الشهادتين

يجد القارىء فى كتب الحديث والسنة كثيرا وكثيرا من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن فضل هاتين الشهادتين، والبشارة لمن أتى بهما بالجنة

والرضوان، والسعادة والنجاة من عذاب الله وسخطه[١]. فمن ذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « من شهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» متفق عليه وفي رواية «أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية يشاء»[٢]، وفي صحيح مسلم وغيره عن عثمان رضي الله عنه مرفوعا «من مات وهو يعلم أن لا إلـه إلا الله دخل الجنة»[٣]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . « أشهد أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة »[٤] وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من شهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار»[٥] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل: « ما من عبد يشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار »[٦] وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه في حديثه الطويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فإن الله حرم على النار من قال لا إلـه إلا الله يبغي بذلك وجه الله»[٧]. وكل هذه النصوص في الصحيحين أو أحدهما، ودلالتهما ظاهرة على فضل الإتيان بهاتين الكلمتين حيث رتب على ذلك دخول الجنة وفتح أبوابها الثمانية، والتحريم على النار، وورد أيضا ترتب العتق من النار على ذلك فقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يصبح أو يمسى: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك، وأنبياءك وملائكتك وجميع خلقك بأنك أنت الله

---

(١) انظر في ذلك كتاب الإيمان أول صحيح مسلم، وكتاب التوحيد آخر صحيح البخاري وغيرهما.

(٢) هو في صحيح البخاري برقم ٣٤٣٥ وصحيح مسلم ١/ ٢٢٦ بشرح النووي.

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٢١٧.

(٤) رواه مسلم في صحيحه ١/ ٢٢١ بشرح النووي.

(٥) هو في صحيح مسلم ١/ ٢٢٧ وغيره.

(٦) المرجع السابق ١/ ٢٤٠.

(٧) المرجع السابق ١/ ٢٤٢.

لا إلـه إلا أنت، وأن محمداً عبدك ورسولك. أعتق الله ربعه من النار، فمن قاله مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاثا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار، ومن قالها أربعا أعتقه الله من النار »رواه الترمذي وأبو داود عن أنس رضي الله عنه[1] وورد أيضا في فضل هذه الكلمة أنها ترجح بالسيئات بل بجميع المخلوقات إلا ما شاء الله، فروى ابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا. وفي رواية قال: لا إلـه إلا أنت إنما أريد شيئا تخصني به. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إلـه إلا الله في كفة مالت بهن لا إلـه إلا الله»[2]. وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن نوحا عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إلـه إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ولا إلـه إلا الله في كفة رجحت بهن لا إلـه إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لفصمتهن لا إلـه إلا الله»[3] وروى الترمذي وغيره عن عبدالله بن عمرو حديث صاحب البطاقة الذي يدعى يوم القيمة فينشر له تسعة وتسعون سجلا - يعني من السيئات - ثم يخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة[4]. فأنت ترى هذه النصوص الصحيحة قد أفادت النجاة والفوز لأهل هذه الكلمة، ولكن لا بد من تحقيقها والعمل بمقتضاها فإن هذه الأدلة المطلقة تحمل على الأخرى التي قيد فيها الإتيان بالشهادتين بالإخلاص والصدق... الخ لتكون بذلك مؤثرة في العمل والسلوك.

---

(١) انظر سنن الترمذي مع تحفة الأحوذي ٤٧٢/٩. وسنن أبي داود برقم ٥٠٦٩ واللفظ له.

(٢) هو في موارد الظمآن برقم ٢٣٢٤ ومستدرك الحاكم ١٢٨/١.

(٣) هو في مسند أحمد تحقيق أحمد شاكر برقم ٦٥٨٣ وكذا رواه الحاكم ٤٨/١ وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) هو في سنن الترمذي مع التحفة ٣٩٥/٧ وكذا رواه أحمد في المسند ٢١٣/٢ وابن ماجه برقم ٤٣٠٠.

المبحث الثاني
القتال على الشهادتين ووجوب الإتيان بهما

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـه إلا الله. فمن قال: لا إلـه إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقهما وحسابه على الله عز وجل» وفي رواية لمسلم «حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به»(١). وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»(٢). وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس - يعني المشركين - حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فإذا شهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسـول الله وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»(٣) والأحاديث في هذا كثيرة، وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتقبل كل فرد أسلم بعد أن يتكلم بالشهادتين فقد ذكر المؤرخون في قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله. قال فرأيت الاستبشار في وجهه(٤). وذكروا عن خالد بن الوليد أنـه قدم المدينة للإسلام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: فسلمت عليه وقلت: إني أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنك رسول الله. فقال: «الحمد لله الذي هداك»(٥) وكذا قصة إسلام خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه أنه لقي

---

(١) هو في البخاري برقم ٢٩٤٦ مسلم مع النووي ١/٢١٠.

(٢) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري برقم ٢٥ وصحيح مع شرح النووي ١/٢١١.

(٣) هو في صحيح البخاري مع الشرح برقم ٣٩٢.

(٤) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٣/٣٤.

(٥) انظر سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٦/٣٦٣ والبداية والنهاية ٤/٢٣٨.

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إلام تدعو؟ قال «أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا ينفع، ولا يدرى من عَبَدَهُ ممن لا يعبده» قال خالد: فإني أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنك رسول الله[1]. فهذه القصص ونحوها تفيد أن النطق بالشهادتين شرط لقبول الإسلام، فمن أتى بهما دخل في هذا الدين، وعصم بذلك دمه وماله وحرم قتله، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أسامة لما قتل من تلفظ بهذه الكلمة، ففي صحيح مسلم وغيره عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه في سرية قال: فأدركت رجلا فقال: لا إلـه إلا الله، فطعنته، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقال لا إلـه إلا الله وقتلته؟» قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه»[2] وفي حديث جندب البجلي في الصحيح أن أسامة قال: يا رسول الله أوجع في المسلمين وقتل فلانا وفلانا، وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال لا إلـه إلا الله. قال: «فكيف تصنع بلا إلـه إلا الله إذا جاءت يوم القيمة»[3] وفي حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله» متفق عليه[4]، وفي المعنى أحاديث كثيرة تفيد أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يكتفي من أهل زمانه بهاتين الشهادتين، وأن من أتى بهما وعمل بمدلولهما، والتزم بما تستلزمه كل منهما من الطاعة لله ورسوله وجميع أنواع العبادة، فيوحد الله عز وجل، ويتخلى عن العادات الشركية، ويأخذ ذلك من معنى قوله لا إلـه إلا الله، كما يلتزم طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه بمجرد قوله: محمد رسول الله وماذاك إلا أن القوم إذ ذاك كانوا عربا فصحاء يعرفون ويفهمون معنى الشهادة، ومعنى «الإلـه» وما في هذه الكلمة من النفي والإثبات، فلا جرم اقتصر على تلقينهم هذه الكلمة، وذلك أن من شرط نجاة من تلفظ بهذه الشهادة أن يكون عالما بمعناها

(١) البداية والنهاية ٣/٣٢.

(٢) كما في صحيح مسلم مع الشرح ٢/٩٩.

(٣) هو أيضا في صحيح مسلم مع الشرح ٢/١٠٠.

(٤) رواه البخاري برقم ١٣٩٥ ومسلم مع الشرح ١/١٩٥.

عاملا بمقتضاها ظاهرا وباطنا، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[١]

وقال عز وجل: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[٢]

ونحو ذلك من الآيات التي تبين أنه يشترط العلم بمعناها وعلى هذا فيجب الكف عن من أتى بالشهادتين ظاهرا من المشركين، ويحقن بذلك دمه حتى يختبر وينظر في أمره بعد ذلك، فإن استقام على الدين والتزم بالتوحيد، وعمل بتعاليم الإسلام، فهو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، وإن خالف مقتضى ما شهد به أو ترك بعض ما كلف به جحدا وإنكارا، أو استباح المحرمات المعلوم بالضرورة تحريمها، لم تعصمه هذه الكلمة، وهذا هو الواقع في الكثير من أهل هذا الزمان من علماء وعامة جهلة أو مقلدة، حيث أن الكثير من العوام في هذه القرون المتأخرة قد فسدت عقائدهم، ونشؤوا على جهالة بالدين وبمدلول الشهادتين، بل بمعاني اللغة العربية كلها، فلا جرم أصبح الجمهور منهم لا يفهمون معنىٰ الشهادتين، ويقعون في ما يناقضهما صريحاً، ويكتفون بمجرد التلفظ بهما معتقدين أن الأجر والحسنات وعصمة الدم والمال تحصل بترديد هذه الأحرف الجوفاء، دون معرفة لمعانيها ولا عمل بمقتضاها، لذلك نحن بحاجة إلىٰ الكلام على معاني هاتين الشهادتين لإقامة الحجة على من خالف ذلك معنىٰ، واكتفىٰ بالتلفظ بهما وزعم أنه بذلك مسلم كامل التوحيد.

المبحث الثالث
في معنىٰ كلمة لا إلـه إلا الله

لقد عني أئمة الدعوة رحمهم الله ببيان معنى كلمة التوحيد فأفردها الشيخ محمد بن عبدالوهاب برسالة في جواب سؤال، وتكلم عليها في كشف الشبهات وغيره، وتعرض لها شراح كتاب التوحيد وغيرهم، وإليك ما ذكره الشيخ سليمان بن عبدالله في تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص **٥٣** حيث يقول: ومعنى لا إلـه إلا الله أي لا معبود بحق إلا إلـه واحد، وهو الله وحده لا شريك

(١) سورة محمد الآية ١٩.

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٦.

له كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(١)

مع قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾(٢)

فصح أن معنى الإلـه هو المعبود، ولهذا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لكفار قريش «قولوا لا إلـه إلا الله» قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾(٣).

وقال قوم هود: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ ﴾(٤)

وهو إنما دعاهم إلى لا إلـه إلا الله، فهذا هو معنى لا إلـه إلا الله، وهو عبادة الله وتـرك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فتضمنت هذه الكلمـة العـظيمـة أن ما سوىٰ الله ليس بإلـه، وأن إلـهية ما سواه من أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلـهية لغيره، فتضمنت نفي الإلـهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه إلـها وحدهُ، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلـهاً، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له، فتقول هذا ليس بمفت ولا شاهد، المفتى فلان والشاهد فلان، فإن هذا أمر منه ونهي، وقد دخل في الإلـهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع، والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها كالدعاء والخوف والمحبة، والتوكل والإنابة والتوبة والذبح والنذر والسجود، وجميع أنواع العبادة، فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئاً مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك ولو نطق بـ لا إلـه إلا الله، إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص.

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥.

(٢) سورة النحل الآية ٣٦.

(٣) سورة ص الآية ٥.

(٤) سورة الأعراف آية ٧٠.

ذكر نصوص العلماء في معنى الإلـه:

قال ابن عباس رضي الله عنه: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[(١)]، وقال الوزير أبو المظفر في «الإفصاح» قوله: شهادة أن لا إلـه إلا الله، يقتضي أن يكون الشاهد عالما بأن: لا إلـه إلا الله، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[(٢)]

وينبغي أن يكون الناطق بها شاهدا فيها، فقد قال الله عز وجل ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالما بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه في قوله تعالى:

﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[(٣)]

قال: واسم الله تعالى مرتفع بعد (إلا) من حيث أنه الواجب له الإلـهية، فلا يستحقها غيره سبحانه، قال: واقتضى الإقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمارة للحدث، فإنه لا يكون إلـها، فإذا قلت لا إلـه إلا الله، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإلـه، فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده. قال: وجملة الفـائـدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلـهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله. وقال أبو عبدالله القرطبي في التفسير: لا إلـه إلا هو، أي: لا معبود إلا هو. وقال الزمخشري: الإلـه من أسماء الأجناس ـ كالرجل والفرس ـ اسم يقع على كل معبود بحق أو بباطل، ثم غلب على المعبود بحق.

وقال شيخ الإسلام: الإلـه هو المعبود المطاع: وقال أيضا: في لا إلـه إلا الله إثبات انفراده بالإلـهية، والإلـهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإلـه هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير أول سورة الفاتحة.

(٢) سورة محمد الآية ١٩.

(٣) سورة الزخرف من الآية ٨٦.

يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع. وقال ابن القيم رحمه الله: الإلـه هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالا، وإنابة وإكراما وتعظيما وذلا وخضوعا، وخوفا ورجاء وتوكلا.

وقال ابن رجب رحمه الله: الإلـه هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبة له وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاء وتوكلا عليه، وسؤالا منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلـهية كان ذلك قدحا فى إخلاصه في قول: لا إلـه إلا الله، ونقصا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلـوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

وقال البقاعي: لا إلـه إلا الله، أي انتفى انتفاء عظيما أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنـما يكون علما إذا كان نافعا، وإنما يكون نافعا إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف.

وقال الطبي: الإلـه فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله إلـهة، أي عبد عبادة وهذا كثير جداً في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإلـه هو المعبود، خلافا لما يعتقده عباد القبور وأشباههم فى معنى الإلـه أنه الخالق، أو القادر على الاختراع، أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله، كدعاء الأموات، والإستغاثة بهم في الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم في الملمات، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات، وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات فليهن أبا جهل وأبا لهب ومن تبعهما الإسلام بحكم عباد القبور، وليهن أيضا إخوانهم عباد ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، إذ جعل هؤلاء دينهم هو الإسلام المبرور، ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته،

إذ يقول لهم: قولوا: لا إلـه إلا الله، بمعنى أنه لا قادر على الاختراع إلا الله.

فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا قال الله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[١]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٢]

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ الآية[٣] إلى غير ذلـك من الآيات، لكن القوم أهل اللسان العربي، فعلموا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكب بناء سؤال الشفاعة من غير الله، وصرف الإلـهية لغير، لأم الرأس، فقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[٤]

﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[٥]

﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٦] فتبا لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بلا إلـه إلا الله. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[٧]

فعرفوا أنها تقتضى ترك عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة، وهكذا يقول عباد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده: أنترك سادتنا وشفعاءنا في قضاء حوائجنا. فيقال لهم: نعم وهذا الترك والإخلاص هو الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٨]

فلا إلـه إلا الله اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلـهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلا عن غيرهم فليس بإلـه، ولا

---

(١) سورة الزخرف الآية ٨٧.

(٢) سورة الزخرف الآية ٩.

(٣) سورة يونس الآية ٣١.

(٤) سورة الزمر الآية ٣.

(٥) سورة يونس الآية ١٨.

(٦) سورة ص الآية ٥.

(٧) سورة الصافات الآيتان ٣٥، ٣٦.

(٨) سورة الصافات الآية ٣٧.

له من العبادة شيء، وأثبتت الإلـهية لله وحده، بمعنى أن العبد لا يأله غيره، أي لا يقصده بشيء من التأله، وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة، كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك، وبالجملة فلا يأله إلا الله أي لا يعبد إلا هو، فمن قال هذه الكلمة عارفا لمعناها، عاملا بمقتضاها، من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقا، فإن عمل به ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم في الدرك الأسفل من النار، واليهود يقولونها وهم على ماهم عليه من الشرك والكفر، فلم تنفعهم، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنها لا تنفعه، ولو قالها مائة ألف ، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله، كعباد القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها، وما أشبهه من الأحاديث، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله (وحده لا شريك له) تنبيها على أن الإنسان قد يقولها وهو مشرك، كاليهود والمنافقين وعباد القبور، لما رأوا أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا قومه إلى قول لا إلـه إلا الله، ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها، ويتركوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[1]

وقالوا ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾[2]

فلهذا أبوا عن النطق بها، وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها، ويعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع، وأما عباد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلـهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناه إلا ما أقر به المؤمن والكافر، واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها لا قادر على الاختراع، أو أن معناها الإلـه، هو الغني عما سواه، الفقير إليه كل ما عداه ونحو

(١) سورة الصافات من الآية ٣٦.   (٢) سورة صٓ من الآية ٥.

ذلك، فهذا حق وهو من لوازم الإلـهية، ولكن ليس هو المراد بمعنى لا إلـه إلا الله، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقروا به ولم يدعوا في آلهتهم شيئاً من ذلك، بل يقرون بفقرهم، وحاجتهم إلى الله وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعـاء عند الله في تحصيل المطالب، ونجاح المآرب، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة، والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنى لا إلـه إلا الله وأبوا عن النطق والعمل بها فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلـهية، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1]

وعباد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها وأبوا عن الإتيان به، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون به، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بالحب والإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء والتوكل والدعاء عند الكرب، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تأله قلبه لغير الله مما هو أعظم مما يفعله المشركون الأولون، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان صادقاً أو كاذباً، ولو قيل له: احلف بحياة الشيخ فلان أو بتربته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذبا، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب، وما كان الأولون هكذا بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى، كما في قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية، وهي في صحيح البخاري[2] وكثير منهم أو أكثرهم يرى أن الاستغاثة بإلـهه الذي يعبده عند قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد، ويصرحون بذلك والحكايات عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب، وهتفوا بأسمائهم ودعوهم ليكشفوا ضر المصاب، في البر والبحر والسفر والإياب، وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم في هذه الحال يخلصون للكبير المتعال، فاقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الآية[3]

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٦.

(٢) روى البخاري برقم ٣٨٤٥ عن ابن عباس قصة أول قسامة في الجاهلية في بني هاشم لما قتل رجل منهم في عقال بعير فأنكر القاتل فحلف من قومه ثمانية وأربعون رجلا فما حال الحول ومنهم عين تطرف .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٥ .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾(1)

وكثير منهم قد عطلوا المساجد، وعمروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه أخذ في دعاء صاحبه باكيا خاشعا ذليلا خاضعا، بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات، وقيام الليل وأدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل فضلا عن عالم أن التلفظ بلا إلـه إلا الله مع هذه الأمور تنفعهم، وهم إنما قالوها بألسنتهم، وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضا بشهادة أن محمدا رسول الله ولم يعرف معنى الإلـه، ولا معنى الرسول، وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم، ولم يفعل شيئا من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب (الدر الثمين، في شرح المرشد المعين) من المالكية، ثم قال شارحه: وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنـان انتهى، ولا ريب أن عبـادة القبور أشد من هذا، لأنهم اعتقدوا الإلـهية في أرباب متفرقين فإن قيل: قد تبين معنى الإلـه والإلـهية، فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإلـه القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة؟

قيل : الجواب من وجهين: أحدهما أن هذا قول مبتدع، لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم، فيكون هذا القول باطلا.

الثاني: على تقدير تسليمه فهو تفسير باللازم للإلـه الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقا قادرا على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإلـه حق وإن سمي إلـهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإلـه هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام، وأتى بتحقيق المرام، من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله

(1) سورة النحل الأيتان ٥٣ ، ٥٤ .

أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو مخطىء يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية. انتهى.

المبحث الرابع
معنى شهادة أن محمدا رسول الله

لما كانت كلمة الشهادة علما على النطق بالشهادتين معا، وكانتا متلازمتين لا تنفك إحداهما عن الأخرى، كان من الواجب على من أتى بكل منهما أن يعرف ما تدل عليه الكلمة، ويعتقد ذلك المعنى، ويطبقه في سيرته ونهجه، فبعد أن عرفت أن ليس المراد من لا إله إلا الله مجرد التلفظ بها، فكذلك يقال في قرينتها، بل لا بد من التصديق بها والالتزام بمعناها ومقتضاها، وهو الاعتقاد الجازم بأنه صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه عز وجل، قد حمله الله هذه الشريعة كرسالة، وكلفه بتبليغها إلى الأمة، وفرض على جميع الأمة تقبل رسالته والسير على نهجه، والبحث في ذلك يحتاج إلى معرفة أمور يحصل بها التأثر والتحقق لأداء هذه الشهادة والانتفاع بها.

الأمر الأول: أهلية النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الرسالة.

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[3]

ونحو هذه الآيات التي تفيدنا بأن رسل الله من البشر الذين فضلهم واجتباهم وطهرهم، حتى أصبحوا أهلا لحمل رسالته، وأمناء على شرعه ودينه، ووسطاء بينه وبين عباده، وقد ذكر الله عن بعض الأمم المكذبة للرسل أنهم قالوا لرسلهم

---

(١) سورة القصص الآية ٦٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

(٣) سورة ص الآية ٤٧ .

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[1]
فكان جواب الرسل أن قالوا ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[2]

وحيث أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل وأفضلهم، وقد خصه بما لم يحصل لغيره ممن قبله، فإنه بلا شك على جانب كبير من هذا الاصطفاء والاختيار الذي أصبح به مرسلا إلى عموم الخلق من الجن والإنس، وقد قال الله تعالى له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3]

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان خلقه القرآن[6] تعني أنه يطبق ما فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال التي يشهد بحسنها وملاءمتها كل عاقل، فلقد كان قبل نزول الوحي عليه على جانب كبير عن الأمانة والصدق والوفاء والعفاف ونحوها حتى كان أهل مكة يعرفونه بالصادق الأمين، وقد تضاعفت وتمكنت فيه تلك الأخلاق بعد النبوة، فكان يتحلى بأعظم درجات الكرم والجود والحلم والصبر، والمروءة والشكر، والعدل والنزاهة، والتواضع والشجاعة. . . الخ، كما يوجد ذلك مدوناً بأمثلة رائعة في كتب السيرة والتأريخ، ولا يخالف في ذلك إلا من أنكر المحسوسات. وهكذا كان صلى الله عليه وسلم مبرءاً عن النقائص ومساوىء الأخلاق التي تزيل الحشمة، وتسقط المروءة، وتلحق بفاعلها الإزراء والخسة، كالبخل والشح، والظلم والجور، والكبر والكذب، والجبن والعجز والكسل، والسرقة والخيانة ونحوها.

الأمر الثاني: عصمته من الخطايا

اتفقت الأمة على أن الأنبياء معصومون من كبائر الذنوب، لمنافاتها للاجتباء والاصطفاء، ولأن الله حملهم رسالته إلى البشر، فلا بد أن يكونوا قدوة لأممهم، وكلفهم أن يحذروا الناس من مفارقة الكفر والذنوب، والفسوق والمعاصي، فلو وقع منهم ظاهرا شيء من هذه الخطايا لتسلط أعداؤهم بذلك على القدح فيهم،

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٠، ١١.
(٢) سورة القلم الآية ٤.
(٣) انظر صحيح مسلم مع النووي ٦/٢٥ في حديث طويل.

والطعن في شريعتهم، وذلك ينافي حكمة الله تعالى، فكان من رحمته أن حفظهم من فعل شيء من هذه المخالفات، وكلفهم بالنهي عنها، وبيان سوء مغبتها، كما جعلهم قدوة وأسوة في الزهد والتقلل من شهوات الدنيا التي تشغل عن الدار الآخرة، فأما صغائر الذنوب فقد تقع من أحدهم على وجه الاجتهاد، ولكن لا يقرون عليها، فلا تكون قادحة في العدالة، ولا منافية للنبوة، وإنما هي أمارة على أنهم بشر لم يصل أحدهم إلى علم الغيب، ولا يصلح أن يمنح شيء من صفات الربوبية. وقد ذكر المفسرون وأهل العلم بعضاً مما وقع من ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[1]

وقوله: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[2] ونحو تلك الوقائع التي فعلها اجتهادا لما يؤمله من مصلحة ظاهرة علم الله تعالى أنها لا تتحقق، فأما المعاصي والذنوب فإن الله تعالىٰ حماه من فعلها أو إقرارها لمنافاة ذلك لصفات الرسالة والاختيار، ولمخالفة ما ورد عنه من التحذير عن الكفر والفسوق والعصيان، فأما تبليغ ما أوصي إليه من الشرع فقد ذكر العلماء المحققون اتفاق الأمة على عصمته بل وعصمة الأنبياء فيما يبلغونه عن الله تعالى من الوحي والتشريع بل إن الله جل ذكره قد عصمه قبل النبوة عن الشرك والخنا ونحو ذلك.

فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم قال: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به... وما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته» ذكره القاضي عياض في كتاب الشفا[3] وغيره، وقال ابن إسحاق في السيرة: فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعائبها، لما يريد به من كرامته ورسالته وهو علي دين قومه، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوالا، وأعظمهم خلقا، وأصدقهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها

(١) سورة الأنعام الآية ٥٢.

(٢) سورة الإسراء الآيتان ٧٣، ٧٤.

(٣) انظر كتاب الشفاء ١/١٠٠.

وتكرما، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله به في صغره وأمر جاهليته[1].

الأمر الثالث: عموم رسالته.

اختص محمد صلى الله عليه وسلم دون الأنبياء بخصائص كثيرة ذكر بعضها في حديث جابر المتفق عليه بقوله: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة)[2] وقال صلى الله عليه وسلم: (بعثت إلى الأسود والأحمر) رواه مسلم[3]. وعلى هذا فإن على جميع البشر أن يتبعوه ويطيعوه، فإنهم جميعا من أمته أمة الدعوة، وقد قال الله تعالى﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4] أي للناس كافة وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[5]

وقد وردت الخطابات في القرآن لعموم الناس كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[6]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾[7]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾[8]

فالإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من ربه، فهذه النصوص تبين أن جميع البشر مكلفون باتباع رسالته، وملزمون بطاعته، وقد اشتهر أيضا

---

(١) من السيرة مع الروض الأنف ٢/٢١٩ .

(٢) هو في صحيح البخاري برقم ٣٣٥ وصحيح مسلم ٥/٣.

(٣) هو في صحيحه مع شرح النووي ٥/٣.

(٤) سورة سبأ الآية ٢٨ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢١ .

(٧) سورة النساء الآية ١٧٠ .

(٨) سورة النساء الآية ١٧٤ .

أنه صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الجن كما بعث إلى الإنس، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ الآيات(١)

وكذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾(٢)

وقد زعم اليهود والنصارى لعنهم الله أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بالعرب، وذلك بعد أن اطمأنوا إلى صحة رسالته، وما تأيد به من المعجزات، وما حصل له من الأتباع، فلم يجدوا بدا من التصديق بأنه مرسل من ربه، ولكن حملهم الكبر وحب المناصب والمكاسب على ترك اتباعه، وقد اعترفوا بأن ما أنزل إليه فهو وحي من الله تعالى لصدقه وصحة رسالته، ومع ذلك لم يتقبلوا ما فيه من الأوامر الموجهة إليهم كقوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣)

ونحو ذلك من الآيات.

الأمر الرابع: تبليغه الرسالة:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٤)

وهذا تكليف من ربه تعالى، فلا بد من حصوله مع أن هذا هو وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم من جملتهم، وقد قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾(٥)

(١) سورة الأحقاف الآيات ٢٩ ـ ٣١.

(٢) من أول سورة الجن.

(٣) سورة البقرة الآيتان ٤١، ٤٢.

(٤) سورة المائدة الآية ٦٧.

(٥) سورة الشورى الآية ٤٨.

وقال: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (١)

وقد شهد له صحابته رضي الله عنهم بهذا البلاغ والبيان، فيقول أبو ذر رضي الله عنه: «توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علما» (٢). وروى أحمد وابن ماجه عنه صلى الله عليه وسلم قال: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» (٣) وفي صحيح مسلم وغيره عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خيرما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم» (٤) وقد اشتهر أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بدعوة أهل بلده وقومه، ثم بدعوة العرب في أنحاء الجزيرة، ثم بمن وراءهم، فكان يرسل الرسل إلى القبائل في البوادي والقرى للدعوة إلى الله وقبول هذه الرسالة، ثم بعث الدعاة إلى اليمن والبحرين وغيرهما، ثم بعث كتبا تتضمن الدعوة إلى هذه الشريعة إلى ملوك الفرس والروم وغيرهم، فما توفي حتى انتشرت دعوته، واشتهر أمره عند القريب والبعيد ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾ (٥)

وهكذا قام صحابته من بعده بالدعوة إلى دينه وقتال من أبى وامتنع من قبولها، حتى يدخل في الإسلام أو يعطي الجزية، ويلتزم الذل والصغار، حتى بلغت هذه الدعوة أقطار الأرض في أقصر مدة، كما ذكر في كتب التأريخ، ومع ذلك فإن من كان نائيا في طرف البلاد وقدر أنه لم يسمع بهذه الشريعة أصلا فإن له حكم أهل الفترات، وهو مع ذلك مكلف بأن يبحث وينقب عن الدين الذي خلق له وما يدين به الناس حوله.

---

(١) سورة النور الآية ٥٤ .

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في أول الحموية وهو في مسند أحمد ٥/٢٦٣ وغيره.

(٣) هو في سنن ابن ماجه برقم ٥ ومسند أحمد ٤/١٢٦ . عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٤) هو في صحيح مسلم مع الشرح ١٢/٢٣٢ مطولا .

(٥) سورة النحل الآية ٣٦ .

الأمر الخامس : ختم النبوة :

لما كانت هذه الشريعة لجميع الخلق وقد كلف بها جميع العباد في أقطار البلاد، فإنها ذلك لكونها خاتمة الشرائع، وآخر الرسالات المنزلة من السماء، فيجب علينا الإيمان بأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وآخر الرسل، قال الله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[١]

وقد قرىء بفتح التاء وكسرها. وأصل الخاتم ما يختم به ما قبله، ومنه ما تختم به الرسائل حتى لا يضاف إليها شيء ليس منها، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى الخلق، فيلزم من كونه خاتم الأنبياء أن يكون آخر الرسل، وقد روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[٢] وروى مسلم أيضا عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[٣] وفي سنن أبي داود وغيره في حديث ثوبان الطويل قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»[٤] فيجب الإيمان بأنه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وأن من ادعى النبوة بعده فهو كاذب، وأن عيسى بن مريم عليه السلام حين ينزل في آخر الزمان إنما يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كفرد من أفراد هذه الأمة، وإن كان ينزل عليه الوحي، لكنه لا يخرج عن هذا الشرع الشريف، وعلى هذا فكل من زعم النبوة أو ادعى الرسالة في هذه الأمة فهو كذاب أفاك

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٢) هو في صحيح مسلم مع الشرح ١٥/٥١.

(٣) هو أيضا في صحيح مسلم مع الشرح ١٥/١٠٤ .

(٤) انظر سنن أبي داود برقم ٤٢٥٢ .

ضال مضل، ولو أتى بمخرفة أو شعوذة، ولو سحر أعين الناس بأنواع من السحر والبهرج الذي يروج على الرعاع والجهلة من العوام، كما جرى على يدى الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب، من الأحوال الشيطانية، والترهات الباطلة التي يعلم كذبها كل ذي عقل سليم، وكذلك غيرهما ممن ادعى النبوة وحصل له أتباع وشوكة، وفتن به بعض الناس، ومن آخرهم غلام أحمد القاديانى الذي انتشر شره وفتن بشبهته طوائف وأمم في الهند والسند وكثير من البلاد، وهكذا كل مدع للنبوة إلى يوم القيٰمة، وآخرهم الدجال الكذاب الذي وردت السنة بأمره وبيان فتنته والتحذير من شره، وقد قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[1]

فهذا يدل على أن أولئك الكذابين تنزل عليهم الشياطين، وتخيل إليهم أنها يأتيهم وحي من الله، ولكن سنة الله فى خلقه أن يجعل على الحق نورا، وأن الخرافات والأكاذيب لا بد وأن ينكشف أمرها، ويتجلى لأولى الألباب.

الأمر السادس: واجب الأمة نحوه:

وبعد أن عرفنا صدقه صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وصحة رسالته، ووجوب تصديقه، وذلك هو مدلول شهادة أن محمدا رسول الله، التي تستلزم تصديقه ثم التعبد باتباعه، والإيمان بما يترتب على ذلك من الثواب، وعلى تركه من العقاب، فإن من واجبنا أن نقوم بتحقيق ذلك وتطبيقه فى واقع الحياة، وذلك يتمثل فى أوامر وردت أدلتها فى الكتاب والسنة.

١ ـ فمنها الإيمان به صلى الله عليه وسلم، فقد أمر الله بذلك كما أمر بالإيمان بالله والملائكة والكتب، ورتب الله تعالى على ذلك جزيل الثواب، وعلى تركه أليم العقاب، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2]

(١) سورة الشعراء الآيتان ٢٢١ ، ٢٢٢.

(٢) سورة النساء الآية ١٣٦ .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾(١)

وقال سبحانه: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا ﴾(٢)

وقال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾(٣)

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ﴾(٤)

وغيرها من الآيات في هذا المعنى، وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به»(٥) وفسر صلى الله عليه وسلم الإيمان في حديث جبريل المشهور بقوله: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره»(٦) ولا شك أن الإيمان به صلى الله عليه وسلم يستلزم تصديقه فيما جاء به، واعتقاد صحة رسالته، ذلك أن أصل الإيمان يقين القلب واطمئنانه بصحة الشيء» ثم التكلم به عن معرفة وإيمان، ثم تطبيق ذلك بالعمل بمقتضاه فباجتماع ذلك يتم الإيمان، ويعتبر وسيلة للنجاة. وبتخلف تصديق القلب يبطل أثر الشهادة ولا تنفع قائلها. ولهذا كذب الله المنافقين بقوله: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾(٧).

٢ ـ ومن ذلك الأمر بطاعته صلى الله عليه وسلم، والتحذير من معصيته، ولا شك أن طاعته من علامات الإيمان به، فإن التصديق الجازم بصدقه يستلزم طاعته فيما بلغه عن الله تعالى، فمن خالفه في ذلك أو شيء منه عنادا أو تهاونا لم

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٨ .

(٢) سورة التغابن الآية ٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .

(٤) سورة الفتح الآية ١٣ .

(٥) صحيح مسلم مع شرح النووي ١/٢١٠ .

(٦) رواه البخاري برقم ٥٠ مسلم ١/١٦١ عن أبي هريرة.

(٧) أول سورة المنافقون .

يكن صادقا في شهادته له بالرسالة، ولقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في مواضع كثيرة من القرآن، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٢) وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾(٣)

ومثل معنى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾(٤) بل قد رتب على طاعته صلى الله عليه وسلم جزيل الثواب فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٥)

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٦)

وهكذا توعد على معصيته بالعقوبة الشديدة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾(٧)

وحكى عن أهل النار قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾(٨)

وورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله»(٩) ومعنى

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٩٢ .

(٣) سورة النور الآية ٥٤ .

(٤) سورة الحشر الآية ٧ .

(٥) سورة النور الآية ٥٦ .

(٦) سورة الأحزاب الآية ٧١ .

(٧) .ورة النساء الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(٨) سورة الأحزاب الآية ٦٦ .

(٩) رواه البخاري برقم ٧١٣٧ وغيره .

هذا أنه صلى الله عليه وسلم إنما يأمر بما أوحي إليه، فطاعته في ذلك طاعة لربه، قال الله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[(١)]

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل الناس يدخل الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله وكيف يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[(٢)] ولا شك أن طاعته هي فعل ما أمر به، وتجنب ما نهى عنه، والتسليم مع ذلك لما جاء به، والرضى بحكمه وترك الاعتراض على شرعه أو التعقب والانتقاد لحكمه.

٣ ـ ومن ذلك أمر الأمة باتباعه والاقتداء بسنته، وقد رتب الله على ذلك الاهتداء والمغفرة، وجعله علامة على صدق المحبة لله تعالى، قال عز وجل: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[(٣)] ولما ادعى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه أنزل آية المحنة، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[(٤)]

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[(٥)]

ولا شك أن مما يجب على العباد محبة ربهم الذي خلقهم وأنعم عليهم، ولكن حصول هذه المحبة وقبولها متوقف على اتباع هذه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد جعل الله من ثواب اتباعه محبة الله تعالى لمن اتبعه ومغفرته له، ولكن علامة هذا الاتباع تقليده صلى الله عليه وسلم والسير على نهجه، والاقتداء به في سيرته وأعماله وقرباته، وتجنب كل ما نهى عنه، والحذر من مخالفته التي نهايتها

---

(١) سورة النساء الآية ٨٠ .

(٢) هو في صحيح البخاري برقم ٧٢٨٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .

(٤) سورة آل عمران الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

الخروج عن التأسي به، كما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

٤ ـ ومن ذلك محبته الصادقة بالقلب والقالب، بل تقديمها على ما سواها قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٢)

فانظر كيف وبخهم على تقديم شيءمن هذه الأصناف الثمانية التي تميل إليها النفس عادة وتؤثر الحياة لأجلها على محبة الله ومحبة رسوله، وتوعدهم بقوله (فتربصوا). . الخ أي انتظروا أمر الله وهو أثر سخطه وغضبه، بما ينزله من العقوبة، وفي ذلك أبلغ دليل على وجوب محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أكد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فى سنته كقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أنس: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» متفق عليه(٣) وفي الصحيحين أيضا عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٤) ولما قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله لأنت أحب إلي من من كل شيء إلا من نفسي قال: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال رضي الله عنه والله لأنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسي. فقال: «الآن يا عمر» رواه البخاري(٥)، وقد ورد في الحديث أن من ثواب محبته صلى الله عليه وسلم الاجتماع معه في الآخرة، وذلك لما سأله رجل عن الساعة فقال: «ما

(١) رواه البخاري برقم ٥٠٦٣ وغيره عن أنس.

(٢) سورة التوبة الآية ٢٤.

(٣) هو في صحيح البخاري ١٦ ومسلم ٢/١٣.

(٤) رواه البخاري برقم ١٥ ومسلم ٢/١٥.

(٥) هو في صحيح البخاري برقم ٦٦٣٢.

أعـددت لها؟» قال ما أعـددت لها إلا حب الله ورسـوله. فقال «أنت مع من أحببت»[١] وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المرء مع من أحب»[٢] وكفى بذلك ثوابا وأجرا لهذه المحبة، ولكن المحبة الصادقة تستلزم الاقتداء به والتأدب بآدابه، وتقديم سنته على رضى كل أحد، وتستلزم أيضا محبة من يحبه ويواليه، وبغض من يبغضه ويعاديه، ولو كان أقرب قريب، فمن استكمل ذلك فقد صدق في هذه المحبة، ومن خالفه أو نقص شيئا من ذلك نقصت محبته بقدر ذلك.

٥ - ومن ذلك احترامه صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعزيره كما ذكر في قوله تعـالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٤] فنهاهم عن التقدم بين يديه برأي أو نظر يخالف ما جاء به، ونهاهم عن رفع الصوت بحضرته، أو الجهر له بالقول بدون مبرر، وتوعدهم على ذلك بحبوط العمل، وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[٥] أي لا تنادوه باسمه العلم كما يدعو أحدكم الآخر، ولكن ادعوه بما تميز به بأن تقولوا: يا نبي الله أو يا رسول الله. وما ذاك إلا لما خصه الله به من الفضـل والـرفعة، وفي تعزيره وتوقيره واحترامه تعظيم لسنته، ورفع لقدرها في نفوس أتباعه، مما يحصل به اتباعه وامتثال أمره وتجنب نهيه.

٦ - ومن ذلك وجوب التحاكم إليه والرضا بحكمه، ومنع الاعتراض عليه،

---

(١) رواه البخاري برقم ٧١٥٣ وغيره عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري برقم ٦١٦٨ ومسلم ١٦/١٨٨.

(٣) سورة الفتح الآية ٩.

(٤) أول سورة الحجرات.

(٥) سورة النور الآية ٦٣.

قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (١)
وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢)
وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (٣)

وأجمعت الأمة أن الرد والتحاكم بعده يكون إلى سنته، ففي هذه الآيات أعظم برهان على تحريم مخالفته، ومنع الاستبدال بسنته، فانظر كيف حذر الذين يخالفون عن أمره بالفتنة وهي الشرك أو الزيغ، وبالعذاب الأليم، وكيف أقسم على نفي الإيمان عنهم حتى يحكموه في كل نزاع يحدث بينهم، ويسلموا لقضائه، ولا يبقى فى نفوسهم أي حرج أو تعنت مما قضى به بينهم، وكفى بذلك وعيداً وتهديداً لمن ترك سنته بعد معرفة حكمها تهاوناً واستخفافا، واعتاض عنها بالعادات والآراء والقوانين الوضعية ونحوها.

الأمر السابع : الاقتصاد والتوسط فى حقه صلى الله عليه وسلم :

جرت سنة الله في خلقه بوقوع الإفراط أو التفريط، وأن كل أمة يقع منهم في الغالب غلو أو تقصير، لذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته المتبعين له من الغلو في حقه وإعطائه شيئا من خالص حق الله تعالى، ويتبين ذلك بما يأتي.

١ ـ أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج عن كونه بشرا، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (٤) فبين أنه اختص بالوحي إليه فقط، و قال تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (٥)
وذلك لما طلب منه المشركون أن يفجر الأرض أو يسقط السماء عليهم.. الخ، فبين لهم أن الذي يملك ذلك هو ربه وحده، فأما هو فإنما تميز بالرسالة

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .
(٢) سورة النور الآية ٦٣ .
(٣) سورة النساء الآية ٦٥ .
(٤) سورة الكهف الآية ١١٠ .
(٥) سورة الاسراء الآية ٩٣ .

التي حمله الله إياها، وقد حكى الله عن الأمم السابقة طعنهم في رسالة الرسل بأنهم بشر، كما في قوله تعالى عن قوم هود أو صالح: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾(١) وحكى عن المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٢) أي يسعى للتكسب وطلب الرزق، فأجاب عن ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٣)

أي ليسوا ملائكة فإن البشر لا يتمكنون عادة من رؤية الملائكة بل لو أرسل الله ملكا لما تمكنوا من مشاهدته حتى يتمثل في صورة إنسان فيقع الاشتباه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٤)

ولما وقع منه صلى الله عليه وسلم السهو في الصلاة ولم يذكروه ظنا منهم أن الصلاة قد قصرت فقال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني» متفق عليه(٥) ومتى كان الرسل بشرا فلا يناسب إعطاءهم شيئاً من حق الله من صفة أو عمل.

٢ ـ أنه صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب، وإنما يخبر بما أخبره الله به وأوحاه إليه، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾(٧)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾(٨)

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٧ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٢٠.
(٤) سورة الأنعام الآية ٩ .
(٥) هو في صحيح البخاري برقم ٤٠١ ومسلم ٥/٦١ عن ابن مسعود.
(٦) سورة الأنعام الآية ٥٠ .
(٧) سورة الأحقاف الآية ٩ .
(٨) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .

فالغيب لا يعلمه إلا الله تعالى وإنما يظهر بعض خلقه على شيء من ذلك كمعجزة وبرهان على صدقه كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[1]

أي أنه تعالى يطلع من ارتضاه وهم رسله على أمور من الغيب مما سبق أو مما يأتي، ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[2]

فإن ما وقع من الإخبار في الأحاديث عن الأمور المستقبلة هو من الوحي الذي اطلع الله عليه رسوله صلى الله عليه وسلم بواسطة الرسول الملكي، أو بما فتح الله عليه وألهمه، ومتى كان هذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم ومن قبله من الرسل لم يصلح أن يصرف لهم شيء من حق الله الذي هو عبادته وحده، ولا أن يوصفوا بما اختص به الرب تعالى، فقد أنكر صلى الله عليه وسلم على الجاريتين اللتين عند الربيع بنت مسعود قولهما: وفينا نبي يعلم ما في غد، رواه الترمذي[3] وقالت عائشة رضي الله عنها: «من حدثك أن محمدا يعلم ما في غد فلا تصدقه» رواه البخاري[4] وورد في حديث جبريل عليه السلام لما سأل عن الساعة قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأحدثك عن أماراتها إذا ولدت الأمة ربها، وإذا رأيت الحفاة العراة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان، وفي خمس لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾» متفق عليه[5] وهذه الخمس يعني مفاتح الغيب المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[6]

فمن ادعى العلم بشيء منها أو نسبه إلى بشر فهو كاذب.

---

(١) سورة الجن الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة النمل الآية ٦٥ .

(٣) هو في سنن الترمذي مع تحفة الأحوذي ٤/٢١١ وصححه .

(٤) هو في صحيح البخاري مع الشرح برقم ٤٨٥٥ .

(٥) هو في صحيح البخاري برقم ٥٠ وصحيح مسلم ١/١٦١ .

(٦) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

٣ ـ أنه صلى الله عليه وسلم لا يملك الضر ولا النفع لنفسه فضلا عن غيره، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾[1]
وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴾[2]

وما ذاك إلا أن الملك لله وحده، فهو الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع، وهو مالك الملك، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، أما الخلق كلهم بما فيهم الأنبياء فإنهم مملوكون، يعمهم قول الله تعالى: ﴿ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾[3]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد هذه الآية: نفى الله عما سواه كلما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله . . الخ
وقد قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾[4]

وذلك حين أن شج النبي صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد وكسرت رباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم»[5] أو كان ذلك لما قنت عليه الصلاة والسلام يدعو على بعض المشركين بمكة، فأنكر الله عليه، وأخبره بأن الأمر كله لله وحده ليس لك منه شيء[6]، وثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم أنذر عشيرته وأقاربه وقال لهم: «أنقذوا أنفسكم من النار لا أغني عنكم من الله شيئا» حتى قال ذلك لعمه وعمته وابنته، وفي رواية «اشتروا أنفسكم»[7] أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، وطاعته فيما أمر والانتهاء عما عنه زجر، فإن في ذلك إنقاذ من النار، دون الاعتماد على النسب والقرابة، فدفع بذلك ما يتوهمه بعضهم من أنه يغني عن أقاربه ويشفع لهم، وهذا الوهم قد سرى وتمكن في نفوس الجم الغفير، فتراهم يعتمدون على مجرد الانتساب إلى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعدونه شرفا، ظانين أن النجاة والشفاعة تحصل لهم بدون عمل، بل

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .
(٢) سورة الجن الآية ٢١ .
(٣) سورة سبأ الآية ٢٢ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٨ .
(٥) رواه مسلم ١٢/١٤٩ وغيره عن أنس .
(٦) رواه البخاري برقم ٤٠٦٩ وغيره عن ابن عمر رضي الله عنه .
(٧) رواه البخاري برقم ٤٧٧١ ومسلم ٣/٧٩ .

إنهم يخالفون سنته، ويعصون الله ورسوله علنا، كما أن هناك آخرون يتعلقون بحبه المزعوم دون اتباعه وطاعته، ويعتقدون أنه يشفع لهم بمجرد تلك المحبة الوهمية رغم مخالفة مدلول المحبة من تقليده والسير على نهجه، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يدفع الضر والعذاب عن نفسه لو عصاه كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾(١)

فكيف بغيره من قريب أو بعيد، وقد بين عليه الصلاة والسلام لأقاربه أنه لا ينجيهم من عذاب الله ولا يدخلهم الجنة ولا يقربهم إلى الله، وإنما أعمالهم هي التي تنقذهم من النار. وثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم حاول هداية عمه أبي طالب فلم يقدر على ذلك، فلما حضرته الوفاة جاءه فقال له: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله» فلقنه جلساء السوء الحجة الشيطانية، فكان آخر كلامه: هو على ملة عبدالمطلب. ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾(٢)

ففي هذه القصة أعظم ما يبطل شبهة المشركين الذين يغلون في حق النبي صلى الله عليه وسلم، ويسألونه تفريج الكروب، وغفران الذنوب، ويهتفون باسمه عند الشدائد بقولهم: «يا رسول الله». ونحو ذلك، فإذا كان هو عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق وأقربهم من الله، وأعظمهم عنده جاها، ومع ذلك حرص على هداية عمه أبي طالب في حياته وعند وفاته فلم يستطع ذلك، لأن الله تعالى كتب عليه الشقاء، وقد عزم على الاستغفار له فنهاه الله عن ذلك بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾(٣)

ففي ذلك دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لا يملك لغيره نفعا ولا يدفع عنه ضرا، ولو دعاه ورجاه وهتف باسمه، ولو زعم أنه يحبه حبا شديداً، فلو كان عند

(١) سورة الجن الآية ٢٢ .

(٢) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٣) سورة التوبة الآية ١١٣ .

النبي صلى الله عليه وسلم شيء من هداية القلوب أو تفريج الكربات، لكان أولى الناس بذلك عمه الكبير الذي كفله وحماه، وحال بينه وبين أذى المشركين، فإذا لم يقدر على هدايته ونجاته فغيره بطريق الأولى.

٤ ـ عبوديته صلى الله عليه وسلم شرف وفضيلة، فقد ثبت في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله»[1] يقول الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله على هذا الحديث في شرح التوحيد ص **٢٧٢**: قوله «إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله» أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسىٰ فادعوا فيه الربوبية، وإنما أنا عبدالله فصفوني بذلك كما وصفني به ربي، وقولوا عبدالله ورسوله فأبى عباد القبور إلا مخالفة لأمره، وارتكابا لنهيه، وناقضوه أعظم المناقضة، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبدالله ورسوله، وأنه لا يدعى ولا يستعان به، ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته، وأنه ليس له من الأمر شيء، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله أن في ذلك هضما لجنابه، وغضا من قدره، فرفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى أو قريبا منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب. وقد ذكر شيخ الإسلام في كتاب «الاستغاثة» عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يستغاث فيه بالله، وصنف فيه مصنفا. وكان يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وحكي عن آخر من جنسه يباشر التدريس، وينسب إلى الفتيا أنه كان يقول: «إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر الله عليه، وأن هذا السر انتقل بعده إلى الحسن، ثم انتقل إلى ذرية الحسن، إلى أبي الحسن الشاذلي، وقالوا: هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع، ومن هؤلاء من يقول في قول الله تعالى: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[2] إن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يسبح بكرة وأصيلا، ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله. فيجعلون الرسول

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٤٤٥.

(٢) سورة الفتح الآية ٩.

معبوداً. قلت: وقال البوصيري:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعل الدنيا والآخرة من جوده، وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ، وهذا هو الذي حكاه شيخ الإسلام عن ذلك المدرس، وكل ذلك كفر صريح. ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته عليه السلام وتعظيمه ومتابعته، وهذا شأن اللعين لا بد وأن يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام أتباع كل ناعق، الذين لم يستضيؤا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، لأن هذا ليس بتعظيم، فإن التعظيم محله القلب واللسان والجوارح، وهم أبعد الناس منه، فإن التعظيم بالقلب: ما يتبع اعتقاد كونه عبدا رسولا، من تقديم محبته على النفس والوالد والوالد والناس أجمعين، ويصدق هذه المحبة أمران: أحدهما تجريد التوحيد، فإنه صلى الله عليه وسلم كان أحرص الخلق على تجريده، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات، حتى قال له رجل: «ما شاء الله وشئت». قال: أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده» رواه أحمد[1]. ونهى أن يحلف بغير الله وأخبر أن ذلك شرك، ونهى أن يصلي إلى القبر أو يتخذه مسجدا أو عيدا، أو يوقد عليه سراج، بل مدار دينه على هذا الأصل الذي هو قطب رحا النجاة، ولم يقرر أحد ما قرره صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله، وسد الذرائع المنافية له، فتعظيمه صلى الله عليه وسلم بموافقته على ذلك لا بمناقضته فيه.

الثاني: تجريد متابعته وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه، والرضى بحكمه والانقياد له والتسليم، والإعراض عما خالفه، وعدم الالتفات إلى ما خالفه، حتى يكون وحده هو الحاكم المتبع المقبول قوله، المردود ما خالفه كما كان ربه تعالى وحده هو المعبود المألوه المخلوق المستغاث به، المتوكل عليه الذي إليه الرغبة والرهبة، الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد ومغفرة الذنوب الذي من جوده الدنيا والآخرة الذي خلق الخلق وحده، ورزقهم وحده، ويبعثهم وحده ويغفر ويرحم ويهدي ويضل، ويسعد ويشقي وحده، وليس لغيره

(١) كما في المسند ١/ ٢١٤، ٢٨٢ عن ابن عباس وصححه المحقق.

من الأمـر شيء كائنا من كان، لا النبي صلى الله عليه وسلم ولا جبريل عليه السلام ولا غيرهما، فهذا هو التعظيم الحق المطابق لحال المعظم، النافع للمعظم في معاشه ومعاده، والذي هو لازم إيمانه وملزومه. وأما التعظيم باللسان فهو الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به عليه ربه وأثنى على نفسه من غير غلو ولا تقصير، كما فعل عباد القبور، فإنهم غلوا في مدحه إلى الغاية. وأما التعظيم بالجوارح فهو العمل بطاعته، والسعي في إظهار دينه، ونصر ما جاء به، وجهاد ما خالفه.

وبالجملة فالتعظيم النافع هو التصديق فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، والموالاة والمعاداة والحب والبغض لأجله، وتحكيمه وحده، والرضى بحكمه، وأن لا يتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم إلى أقواله، فما وافقها من قوله صلى الله عليه وسلم قبله، وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه، والله سبحانه يشهد وكفى به شهيدا وملائكته ورسله وأولياؤه، أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك، والله المستعان. هذا كلام الشيخ رحمه الله وقد حكى ما شاهده في زمانه وقبله من أقوام جهلة بالتوحيد ادعوا محبة النبي صلى الله عليه وسلم فبالغوا في مدحه حتى وصفوه بما لا يستحقه إلا الله تعالى من الملك والعلم والتصرف، وحتى صرفوا له خالص حق الله عز وجل من الدعاء والرجاء وتفويض الأمور إليه والاعتماد عليه، وقد ذكر رحمه الله في شرح التوحيد صـ١٨٦ وما بعدها بعض ما قال أهل الغلو والإطراء في حقه صلى الله عليه وسلم، وأورد أبياتا من قصيدة البردة للبوصيري كقوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وما بعده من الأبيات، ثم بين ما فيها من الشرك الصريح، وذكر أيضاً بعضا من شعر البرعي الذي بالغ فيه وغلا، ووقع في عبادة الرسول صلى الله عليه وسلم صريحا، ونسى ربه عز وجل وهكذا ذكر النعمى في (معارج الألباب) صـ١٦٩ وما بعدها بعض أقوال الغلاة ومبالغتهم في التعلق بالأموات، ومن ذلك أبيات شعر تتضمن الشرك الواضح بالنبي صلى الله عليه وسلم وأولها قوله:

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي ... يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري

أنت الملاذ لما أخشى ضرورته وأنت لي ملجأ من حادث الدهر

إلى آخر تلك الأبيات الشركية، وعلق عليها رحمه الله يقول: فلا ندري أي معنى اختص به الخالق بعد هذه المنزلة، من كيفية مطلب، أو تحصيل مأرب، وماذا أبقى هذا المشرك الخبيث من الأمر، فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون كل ما عبدوه من دون الله لشيء من هذا ولا لما هو أقل منه. ا. هـ.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاف على أمته من هذا الغلو ويحذرهم من أسبابه، فقد روي أبو داود بسند جيد عن عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا. فقال «السيد الله تبارك وتعالى» قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم»[1] وعن أنس رضي الله عنه أن أناسا قالوا: يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا. فقال: «يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل». رواه النسائي بسند جيد،[2] وهذا كثير في السنة كقوله صلى الله عليه وسلم: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله» رواه الطبراني[3] وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم قال له رجل: «ما شاء الله و شئت» فقال: «أجعلتني لله مثلاً ما شاء الله وحده»[4] فالنبي صلى الله عليه وسلم هو سيد الخلق وأفضلهم وخيرهم، لكنه يكره المدح سيما أمام الممدوح، حتى قال: «إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» رواه مسلم[5]، وما ذاك إلا أن المدح قد يوقع الممدوح في الإعجاب والكبرياء التى تحبط الأعمال أو تنافي كمال التوحيد، وقد افتخر عليه الصلاة والسلام بالعبودية لربه وهي الذل والتواضع له، وذلك شرف وفضيلة، ولذلك ذكره الله باسم العبد في قوله تعالى: ﴿ وَإِن

---

(١) هو في سنن أبي داود برقم ٤٨٠٦ .

(٢) هو في عمل اليوم والليلة برقم ٢٤٩ وكذا رواه أحمد ٣/٢٤٩ وغيره.

(٣) ذكره في مجمع الزوائد ١٠/١٥٩ قال: ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث.

(٤) سبق أنه عند أحمد في المسند ١/٢١٤.

(٥) هو في صحيحه ١٨/١٢٨ عن المقداد رضي الله عنه .

كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [١] وفي قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [٣] وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [٤]

فإن العبودية لله تعالى تقتضي غاية الذل وغاية المحبة، فالتذلل لله تعالى يستدعي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن يرى نفسه حقيرا ذميما مقصراً في واجبه، فيرجع إلى نفسه بالمعاتبة، ويعترف لربه بالفضل والإنعام، وكذلك الحب يستدعى محبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه من الأقوال والأفعال والإرادات، فظهر بذلك كمال صفة العبودية لرب الأرباب.

٥ ـ موته صلى الله عليه وسلم كغيره من الأنبياء والرسل، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [٦]

ثم إن المسلمين يدينون جميعا بأن الأنبياء قبله قديما قد ماتوا، وانقضت أعمارهم التي كتب الله لهم في الدنيا، وأصبحوا في عالم البرزخ، وحيث ورد في النصوص ما يقتضي حياة الشهداء كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [٧]

فإن الأنبياء أولى بهذه الحياة، ومعلوم أن الشهداء قد خرجوا من هذه الحياة الدنيا، وقد قسمت أموالهم بين الورثة، وحلت نساؤهم لغيرهم، فكان ذلك أوضح دليل على موتهم، ولكن الله تعالى نهى أن نقول لهم أموات في قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [٨]

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .

(٢) أول سورة الاسراء .

(٣) أول سورة الكهف .

(٤) سورة الجن الآية ١٩ .

(٥) سورة الزمر الآية ٣٠ .

(٦) سورة الأنبياء الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٦٩ .

(٨) سورة البقرة الآية ١٥٤ .

وهذه الحياة لا نعلم كيفيتها إلا أنا نتحقق أن أرواحهم خرجت من أبدانهم، وأن أعمارهم انقضت، وأعمالهم قد ختمت، وقد فسرت حياتهم في الحديث الصحيح بأن أرواحهم جعلت في أجواف طير خضر تعلق في شجر الجنة[1] وهذا يحقق أنها قد فارقت أبدانهم، وإنما تميزوا بهذه الحياة الخاصة، ومعلوم أن الأنبياء والرسل أولى بهذه الحياة، وبكل حال فإنها لا تمكنهم من إجابة من دعاهم، أو إعطاء من سألهم فنحن نعتقد أن نبي الله صلى الله عليه وسلم في حياة برزخية أكمل من حياة الشهداء، وقد تميز بحماية جسده عن البلى، كما ثبت في سنن أبي داود عن أوس بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن من خير أيامكم يوم الجمعة فأكثروا من الصلاة علي فيه فإن صلاتكم معروضة علي) قالوا: يا رسول الله كيف تعرض عليك وقد أرمت. قال: (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسام الأنبياء)[2] وهذا أوضح دليل على أن روحه قد خرجت من جسده، ورفعت إلى الرفيق الأعلى، كما كان ذلك آخر طلبه من الدنيا، وكذا قد ورد في الحديث عن أبي هريرة قوله صلى الله عليه وسلم (ما من مسلم يسلم عليَّ إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) رواه أبو داود[3]، وفي كيفية هذا الرد خلاف والله أعلم بذلك، وقد روى أبو داود بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)[4] وروى الحافظ الضياء في المختارة وغيره عن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنه أنه رأى رجلا يجيىء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا فان تسليمكم يبلغني أين كنتم)[5]

---

(١) هو في صحيح مسلم ١٣/ ٣٠ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) كما في سنن أبي داود برقم ١٠٤٧ .

(٣) هو في سننه برقم ٢٠٤١ .

(٤) هو في سنن أبي داود أيضا برقم ٢٠٤٢ .

(٥) ذكره الهيثمي في الزوائد ٤/ ٣ وعزاه لأبي يعلى ووثقه رجاله.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبدالعزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم عند القبر فناداني فقال: مالي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تتخذوا قبري عيدا ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء[1] فهذه الآثار تدل على شهرة ذلك عند السلف، وحرصهم على حفظ هذه السنة وتبليغها، ومعنى قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورا) أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور التي لا تجوز الصلاة عندها، والمراد صلاة التطوع. (ولا تتخذوا قبري عيدا) نهى صلى الله عليه وسلم من زيارة قبره على وجه مخصوص واجتماع معهود، بحيث يكون كالعيد الذي يتكرر الاجتماع فيه في زمن محدد، ويحصل به فرح واغتباط يعود ويتكرر كل عام مرة و مرارا، ثم أخبرنا بأن صلاتنا تبلغه أين ما كنا، يعني أن ما يناله من الصلاة والسلام حاصل مع القرب والبعد، فلا مزية لمن صلى عليه أو سلم عند القبر، وهذا معنى قول الحسن بن الحسن (ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء) ومن قصد القبر للسلام فقط ولم يكن قصده المسجد فقد اتخذه عيدا كما فهم ذلك الحسن بن الحسن رضي الله عنه، وقد كره الإمام مالك رحمه الله لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي القبر النبوي لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك قال: (ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها)[2]. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم وكذا كبار التابعين يصلون في المسجد النبوي خلف الخلفاء الراشدين أغلب الأوقات، ثم ينصرفون بعد السلام أو يجلسون في قراءة أو عبادة، ولم يحفظ عنهم الإتيان إلى القبر بعد كل صلاة، بل يكتفون بالصلاة والسلام عليه في التشهد، وذلك أفضل من الوقوف أمام القبر لذلك، رغم تمكنهم من الوصول إلى القبر في حياة عائشة وبعدها قبل بناء الحيطان دونه بعد أن أدخل في توسعة

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ٣٢٢ وساقه بإسناده.

(٢) ذكره شيخ الإسلام في الاقتضاء ٣٦٦، ٣٩٤ بنحوه.

المسجد في عهد الوليد بن عبدالملك، وبكل حال فإن الصحابة لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج إذا قدم من سفر فيسلم عليه ثم ينصرف، كما نقل ذلك عن ابن عمر، ولم يحفظ عن غيره من الصحابة، ولم يكن يفعله دائما، فتكرار ذلك كل وقت بدعة ووسيلة إلى تعظيمه أو دعائه مع الله، وقد اتفق الأئمة رحمهم الله أن من سلم على النبي صلى الله عليه وسلم وأراد الدعاء لنفسه لا يستقبل القبر، وإنما يستقبل القبلة التي هي أفضل الجهات وأرجى لقبول الدعاء، وأما الحكاية عن مالك أنه قال للمنصور: ولم تصرف وجهك عنه. . . بل استقبله واستشفع به. . الخ فهي حكاية موضوعة مكذوبة عليه كما حقق ذلك العلماء رحمهم الله[1].

٦ ـ منع السفر لمجرد زيارة القبر النبوي، ثبت في الصحاح والسنن والمسانيد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)[2] ومعنى ذلك النهي عن السفر إلى بقعة أو موضع لقصد التعبد فيه، لاعتقاد أن العمل فيه مضاعف أو له مزية على غيره من المواضع، فدخل في ذلك منع السفر لزيارة القبور ولو قبور الأنبياء، فإنه من اتخاذها أعيادا، والاعتقاد فى المقبورين بما يكون وسيلة إلى عبادتهم مع الله تعالى، كما هو الواقع من المشركين فى هذا الزمان وقبله، حيث ينشؤن الأسفار الطويلة إلى قبور الأولياء كما زعموا أو يتجشمون المشقات وينفقون الأموال الطائلة ومتى وصلوا إلى تلك المشاهد كما أسموها حطوا رحالهم، وأخذوا فى الهتاف والنداء لاولئك الأموات، وعملوا هناك مالا يصلح إلا لله رب العالمين، من الطواف بتلك الأضرحة والتمسح بترابها، والدعاء لأربابها، والذبح والنحر لها ونـه و ذلك، فهذا ما خافه عليه الصلاة والسلام من منعه شد الرحال لغير المساجد الثلاثة، وقد كتب فى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالة ذكر فيها اختلاف العلماء فى حكم شد الرحال لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين، ورجح المنع، وذكر أنه قول ابن بطة وأبي الوفاء ابن عقيل، والجوينى والقاضي

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام أيضا في الاقتضاء ص ٣٩٥ وغيره.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم ١١٨٩ وعن أبي سعيد برقم ١١٩٧.

عياض وغيرهم، بل هو قول الجمهور، ونص عليه مالك، ولم يخالفه أحد من الأئمة، ولكن ليس المراد النهي عن زيارة القبور بدون شد رحل، فقد ورد الترغيب فيها وأنها تذكر الآخرة، وأن الزائر يدعو للأموات ويترحم عليهم، وهذا يحصل في أقرب مقبرة عنده فإن كل بلد لا تخلو من المقابر، فأما إعمال المطي والسفر إلى بلد بعيد لأجل بقعة أو قبر فإنما يكون ذلك لاعتقاد عظمة ذلك المقبور، وأهليته أن يعظم ويدعى ويرجى، فيصرف له خالص العبادة، فلا جرم ورد النهي عن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة، وقد روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما منعا شد الرحل إلى الطور، لأجل الصلاة فيه، واستدلا بحديث النهي عن شد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد[1]، مع أن الله ذكر الطور وسماه بالوادي المقدس، والبقعة المباركة، وكلم عبده موسى هناك، وعلى هذا فمن سافر إلى المدينة قاصدا المسجد النبوي الذي تكون الصلاة فيه بألف صلاة فسفره طاعة وقربة، وله بعد الصلاة في المسجد أن يسلم على القبر الشريف، وعلى قبور الصحابة والشهداء، ويدعو لهم، فأما من أنشأ السفر لأجل القبر نفسه، سواء للسلام عليه أو للدعاء عنده فسفره بدعة منكرة، حيث خالف حديث «لا تتخذوا قبري عيدا وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» فأما الأحاديث المروية في فضل الزيارة للقبر الشريف فكلها ضعيفة أو موضوعة، كما حقق ذلك العلماء، فليتنبه لذلك والله الموفق.

المبحث الخامس

شروط الشهادتين

ذكر العلماء لكلمة الإخلاص سبعة شروط نظمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وهذه الشروط مأخوذة بالاستقرار والتتبع للأدلة من الكتاب والسنة، وقد

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣/٦٤ عن أبي سعيد وذكره الشيخ سليمان بن عبدالله في تيسير العزيز الحميد ص ٣١٣. وعزاه لأحمد وعمر بن شبة في أخبار المدينة ورواه أحمد ٦/٧ عن أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه.

أضاف بعضهم إليها شرطا ثامنا ونظمه بقوله :

وزيد ثامنها الكفـران منك بمـا سوى الإلـه من الأنداد قد ألها

وأخذ هذا الشرط من قوله صلى الله عليه وسلم : «من قال لا إلـه إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه» رواه مسلم[1] ، وذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد ثم قال بعده : وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إلـه إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الاقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه . . الخ ، ومعنى هذا الشرط أن يعتقد بطلان عبادة من سوى الله وأن كل من صرف شيئاً من خالص حق الله لغيره فهو ضال مشرك ، وأن كل المعبـودات سوى الله من قبـور وقباب وبقاع وغيرها نشأت من جهل المشركين وخرافاتهم ، فمن أقرهم على ذلك أو تردد في صوابهم أو شك في بطلان ما هم عليه فليس بموحد ، ولو قال لا إلـه إلا الله ، ولو لم يعبد غير الله . ومع ذلك فإن الشروط السبعة هي المشهورة في كتب أئمة الدعوة رحمهم الله فنذكر عليها بعض الأدلة للتوضيح .

(فأولهـا) : العلم ودليله قوله تعالى : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2]

وروى مسلم عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من مات وهو يعلم أن لا إلـه إلا الله دخل الجنة»[3] والمراد العلم الحقيقي بمدلول الشهادتين وما تستلزمه كل منهما من العمل ، وضد العلم الجهل ، وهو الذي أوقع المشركين من هذه الأمة في مخالفة معناها ، حيث جهلوا معنى الإلـه ، ومدلول النفي والإثبات ، وفاتهم أن القصد من هذه الكلمة معناها ، وهو الذي

(١) هو في صحيحه ١/٢١٢ .

(٢) سورة محمد الآية ١٩ .

(٣) هو في صحيح مسلم بشرح النووي ١/٢١٨ .

خالفه المشركون العالمون بما تدل عليه، حيث قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾[(١)]
وقالوا: ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾[(٢)].

(وثانيها): اليقين وضده الشك والتوقف أو مجرد الظن والريب، والمعنى أن من أتى بالشهادتين فلا بد أن يوقن بقلبه ويعتقد صحة ما يقوله، من أحقية إلـهية الله تعالى، وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبطلان إلـهية غير الله بأي نوع من التأله وبطلان قول كل من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم، فإن شك في صحة معناها أو توقف في بطلان عبادة غير الله لم تنفعه هاتان الشهادتان، ودليل هذا الشرط ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الشهادتين «لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»[(٣)] وفي الصحيح عنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إلـه إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة»[(٤)] وقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾[(٥)] وذم المنافقين بقوله: ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[(٦)]
وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله[(٧)]. ولا شك أن من كان موقنا بمعنى الشهادتين فإن جوارحه تنبعث لعبادة الرب وحده، ولطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام.

(وثالثها): القبول المنافي للرد، فإن هناك من يعلم معنى الشهادتين ويوقن بمدلولهما ولكنه يردهما كبرا وحسداً، وهذه حالة علماء اليهود والنصارى فقد

(١) سورة ص الآية ٥.
(٢) سورة ص الآية ٦.
(٣) هو في صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٢٢١.
(٤) رواه مسلم ٢٣١ وغيره.
(٥) سورة الحجرات الآية ١٥.
(٦) سورة التوبة الآية ٤٥.
(٧) ذكره البخاري تعليقا كما في الفتح ١/ ٤٥ وقال الحافظ وصله الطبراني بسند صحيح وأبو نعيم في الحلية.

شهدوا بإلـهية الله وحده، وعرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك لم يقبلوه: ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[1]

وهكذا كان المشركون يعرفون معنى لا إلـه إلا الله وصدق محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم يستكبرون عن قبوله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[3]

(ورابعها): الانقياد، ولعل الفرق بينه وبين القبول أن الانقياد هو الاتباع بالأفعال، والقبول إظهار صحة معنى ذلك بالقول، ويلزم منهما جميعا الاتباع، ولكن الانقياد هو الاستسلام والاذعان، وعدم التعقب لشيء من أحكام الله، وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾[4]

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[5]

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[6]

فهذا هو الانقياد لله تعالى بعبادته وحده، فأما الانقياد للنبي صلى الله عليه وسلم بقبول سنته، واتباع ما جاء به والرضى بحكمه، فقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[7]

فاشترط في صحة إيمانهم أن يسلموا تسليما لحكمه، أي ينقادوا ويذعنوا لما جاء به من ربه.

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٠٩ .

(٢) سورة الصافات الآية ٣٥ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٣ .

(٤) سورة الزمر الآية ٥٤ .

(٥) سورة النساء الآية ١٢٥ .

(٦) سورة لقمان الآية ٢٢ .

(٧) سورة النساء الآية ٦٥ .

(وخامسها): الصدق وضده الكذب، وقد ورد اشتراط ذلك في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «من قال لا إلـه إلا الله صادقا من قلبه دخل الجنة»(١٣) فأما من قالها بلسانه وأنكر مدلولها بقلبه فإنها لا تنجيه، كما حكى الله عن المنافقين أنهم قالوا: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾(١)

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾(٢)

وهكذا كذبهم بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

(وسادسها): الإخلاص وضده الشرك، قال الله تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾(٤)

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾(٥)

وقال: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾(٦)

وفي الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إلـه إلا الله خالصا من قلبه»(٧) وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال لا إلـه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»(٨) فالإخلاص أن تكون العبادة لله وحده، دون أن يصرف منها شيء لغيره، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وكذا الإخلاص في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم بالاقتصار على سنته، وتحكيمه، وترك البدع والمخالفات، وكذا ترك التحاكم إلى ما وضع البشر من قوانين وعادات ابتكروها وهي مصادمة للشريعة، فإن من رضيها أو حكم بها لم يكن من المخلصين.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤/ ١٦ عن رفاعة الجهني ورواه أحمد أيضا ٤/ ٤٠٢ عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أول سورة المنافقين.

(٣) سورة البقرة الآية

(٤) سورة الزمر الآيتان ٢، ٣

(٥) سورة الزمر الآية ١١.

(٦) سورة الزمر الآية ١٤.

(٧) هو في صحيح البخاري ٩٩ وغيره.

(٨) سبق أنه عند البخاري ٤٢٥ ومسلم ١/ ٢٤٢

(وسابعها) : المحبة المنافية لضدها من الكراهية والبغضاء، فيجب على العبد محبة الله ومحبة رسوله ومحبة كل ما يحبه من الأعمال والأقوال، ومحبة أوليائه وأهل طاعته، فهذه المحبة متى كانت صحيحة ظهرت آثارها على البدن، فترى العبد الصادق يطيع الله ويتبع رسوله صلى الله عليه وسلم، ويعبد الله حق عبادته، ويلتذ بطاعته ويسارع إلى كل ما يحبه مولاه من الأقوال والأعمال، وتراه يحذر المعاصي ويبتعد عنها، ويمقت أهلها ويبغضهم، ولو كانت تلك المعاصي محبوبة للنفس ولذيذة في العادة، لعلمه بأن النار حفت بالشهوات، والجنة حفت بالمكاره، فمتى كان كذلك فهو صادق المحبة، ولهذا سئل ذو النون المصري رحمه الله : متى أحب ربي؟ فقال إذا كان ما يبغضه أمر عندك من الصبر[1]. ويقول بعضهم : من ادعى محبة الله ولم يوافقه فدعواه باطلة. وقد شرط الله لعلامة محبته اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2]

وقد سبق أن ذكرنا بعض الأدلة على محبة النبي صلى الله عليه وسلم وما تستلزمه من الأعمال فكذلك محبة الله تعالى.

المبحث السادس

نواقض الشهادتين

تكلم علماء الإسلام في كل مذهب على نواقض الإسلام في كتب الفقه في حكم المرتد، وما تحصل به الردة، وبالغ بعضهم في سرد الأمثلة التى تحصل بها الردة نعوذ بالله، وقد بلغت عددا من المئين ما بين فعل وترك، لكن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى لخصها في عشرة نواقض، مذكورة في مجموعة التوحيد وغيرها، وإنما يهمنا هنا أن نذكر بعض الخصال التي ينافي فعلها كلمتي التوحيد، ولا يحصل الأمر المرتب على فعلهما والنطق بهما فمن ذلك :

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٣٦٣/٩ بإسناده عنه.

(٢) سورة آل عمران الآية ٣١ .

١ ـ إنكار خلق الله تعالى لبعض الموجودات، أو إسناد بعض التدبير والتصرف إلى الطبيعة والصدفة، فإن ذلك طعن في الرب تعالى، وذلك ينافى اعتقاد المسلمين إثبات كمال التصرف لله وحده، وأنه لذلك هو المستحق للعبادة.

٢ ـ إنكار شيء من صفات الكمال لله عز وجل، كالعلم والحياة والقيومية والجبروت والسمع والبصر، فإن ذلك غاية التنقص الذي ينافي استحقاق الرب للإلـهية، وهكذا إثبات شيء من النقائص التي نزه الله نفسه عنها، كالسنة والنوم والنسيان والظلم والولد والشريك ونحوها، فإن ذلك ينافي الكمال الذي استحق به الله تعالى العبادة من جميع الخلق.

٣ ـ وصف بعض المخلوقات بشيء من خصائص الخالق كعلم الغيب، وعموم الملك، وكمال التصرف في الكون، والقدرة على الخلق والإيجاد بدون إرادة الله، فإن هذا تشريك مع الله لهذا المخلوق، ورفع له إلى مرتبة الخالق، وذلك غاية التنقص لله تعالى.

٤ ـ نفي استحقاق الرب عز وجل لكل العبادات أو لبعضها كاعتقاد أنه تعالى لا يخشى ولا يدعي ولا يستحق أن يستعان به، أو لا أهمية لذلك أو لا فائدة فيه، وهكذا حكم من سخر ببعض العبادات، أو استهزأ بالمصلين أو المتمسكين بأي نوع من أنواع الطاعة، فإن ذلك انتقاد للشرع، وهو ينافي الشهادتين.

٥ ـ من اعتقد أن أحدا من الناس يسوغ له التشريع والتقنين ووضع الأحكام التي تغير الشرع، كإباحة الزنا أو الربا، وإبطال العقوبات الشرعية، كقتل القاتل وقطع السارق، وإبطال الزكاة، وتغيير الفرائض أو أي نوع من أنواع العبادات، وهكذا التحاكم إلى غير شرع الله والحكم بغير ما أنزل، فمن اعتقد ذلك أو نحوه فقد اعترض على الرب في شرعه، وزعم أنه ناقص أو غير ملائم، أو أن غير حكم الله أحسن من حكمه، وذلك غاية التنقص فلا يجتمع مع التوحيد الخالص.

٦ ـ صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله تعالى، وهو شرك القبوريين في هذه

الأزمنة، فمن دعى ميتا أو رجاه أو علق قلبه به أو أحبه كحب الله أو انحنى له أو خشع وخضع عند القبر ونحوه، أو طاف به أو ذبح له أو نحو ذلك من أنواع العبادة فقد أبطل شهادته أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله، وقد سبق شيء مما يتعلق بمعنى الإلـهية والعبادة وما يدخل فيها.

٧ - موالاة أعداء الله ومحبتهم وتقريبهم، ورفع مقامهم، واعتقاد أنهم على حق أو أنهم أولى بالتبجيل والاحترام من المسلمين، وسواء كانوا من أهل الكتابيين أو من الوثنيين أو الدهريين، فإن طاعتهم وتوقيرهم وإعزازهم يوحى بأنهم على صواب، وأن المسلمين المخالفين لهم ضالون خاطؤون، أو يدل احترامهم على تعظيم دنياهم أو علومهم الدنيوية، وكل ذلك ينافي حقيقة الشهادة.

٨ - الطعن في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم أو في شريعته، أو تكذيبه أو دعوى خيانته أو كتمانه لما أوحي إليه، وكذا إظهار سبه أو عيبه أو التهكم بسيرته أو شيء من أعماله أو أحواله أو تصرفاته، ونحو ذلك مما يدل على إنكار رسالته في الباطن، فإن الطعن فيه طعن في الرب تعالى فهو الذي أرسله وحمله هذه الرسالة، وذلك يناقض كلمتي الشهادتين.

٩ - الطعن في القرآن الذي هو كلام الله تعالى، كدعوى المشركين أنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين، أو أنه مفترى مكذوب، وكذا من زعم أنه قول البشر، أو نفي إعجازه أو حاول معارضته بمثله، وأن ذلك ممكن أو كذب ببعض ما اشتمل عليه، أو أنكر بعض السور أو الآيات المنقولة بالتواتر أو نحو ذلك، فإنه كافر مكذب لله ورسوله، وذلك يناقض كلمة التوحيد.

١٠ - إنكار شيء من الأمور الغيبية التي أمر الله بالإيمان بها وأخبر بثبوتها وأحقيتها في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، كالملائكة والكتب، والرسل، والبعث بعد الموت، وحشر الأجساد والجنة والنار، وكذا عذاب القبر ونعيمه، ونحو ذلك، فإن من جحد منها شيئا فقد كذب الله وكذب رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك أكبر الطعن في الرسالة، وما اشتملت عليه، فهو يخالف ما تستلزمه الشهادتان.

واقتصر على هذا القدر مما يتعلق بالشهادتين وما يكون به تحقيقهما، وذلك على وجه الاختصار، ومن أراد التفصيل وجد ذلك في كتب أئمة الدعوة رحمهم الله، وكذا من سبقهم من علماء المسلمين، والله أعلم وأحكم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.